(٥)
يزيد والخلافة

obeikandl.com

عندما تولى يزيد الخلافة.. ووكل الأمر لبنى أمية.. كان الناس يأملون منه العدل والعمل بالشريعة، ونشر قيم الإسلام وفضائله..!

ولكن شاع بين الناس أن يزيد يحب القمار والخمر وأنه داهية.. شديد المكر.. ولا يؤمن جانبه.

ولم تعد الصورة كما كان الناس يتمنون ويأملون بعد أن انتهت الحرب الأهلية فى زمن الإمام، وبعد أن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية الذى حولها إلى ملك عضوض، وأخذ البيعة لابنه بالخديعة حينًا، وباللين أحيانًا، وبالوعد والوعيد فى أحيان أخرى، وبالشدة إذا لزم الأمر.

كانت السيدة زينب رضى الله عنها كواحدة من آل البيت، تهتم بما يجرى على الساحة الإسلامية من أحداث، تتابع هذه الأحداث من بعيد، فلم تشترك فيها إلا بعواطفها ومشاعرها.. وهى ترى والدها لا يخرج من أزمة إلا ويدخل فى أزمة أخرى، خاصة فى عهد عثمان رضى الله عنه، وأثناء خلافته عندما فرضت عليه الظروف فرضًا أن يخوض حروبه مع عائشة وطلحة والزبير، ومع الخوارج، ومع معاوية بن أبى سفيان.

كانت هموم الإمام كثيرة..

وكانت أشجانه لا تنتهى، وكذلك كان آل بيته يشاركونه هذه الأحزان التى فوق الطاقة البشرية!

كان أمل الإمام عندما تولى الخلافة إلا ينازعه فيها منازع، ولا يخرج عنه خارج، ليتفرغ لما هو أهم من الصراع الداخلى، والاعتقادات الخاطئة.. ليتفرغ لنشر الإسلام فى بقاع الدنيا ونشر نور الإسلام وحضارته فى كل أرجاء العالم.. ونشر فضائل الإسلام وقيمه ومبادئه بالعمل بالكتاب والسنة، وهو خير من يفهم ما جاء فى الكتاب والسنة لعلمه وبلاغته وقربه من الرسول عليه الصلاة والسلام.

كان يأمل أن يكون حكمه امتدادًا لحكم الشيخين أبوبكر وعمر.. ولكن الرياح تأتى دائمًا على عكس ما تشتهى السفن كما يقولون.. فإذا به يواجه الطامعون فى السلطة، والذين يفهمون الدين على هواهم كالخوارج.. وانتهت حياته نهاية مأساوية عندما قتلوه وهو ذاهب يؤدى صلاة الصبح.!

سنوات وسنوات مرت..

حكم فيها معاوية البلاد أكثر من ١٢ عامًا بعد تنازل الحسن له عن الخلافة.

وعلى وهج الانتصارات التى حققها المسلمون، إلا أنهم كانوا يريدون أن يشعروا بقيم الإسلام ومبادئه وأن يجسد حكام بنى أمية شريعة الله.

ولكن الناس على العكس يتناهى إلى سمعهم ما يغدقه حكام الولاة على من يريدون من الأتباع، ويحجبون المال على من لا يرغبون.. ويسودون الناس بالقهر والطغيان..!

هال الناس ذلك.. وهالهم أن هناك طبقة مترفة بدأت تغزو المجتمع الإسلامى.. ففى الوقت الذى نرى فيه أبناء الصحابة من التابعين يتجهون إلى العبادة والتقرب إلى الله بمختلف العبادات.. كان هناك أيضًا طبقة امتلكت الأموال والضياع، واتجهوا إلى الترف.. وعرف مجتمع مكة الطرب والغناء.. وكان الحكم الأموى يشجعهم على ذلك لأنه لم يشركهم فى أمور الحكم لا عن طريق الشورى أو غير الشورى.

وقد مَجّ الناس سياسة معاوية فى الوقيعة بين الناس.. فكان يوقد نار الخلافات بين مختلف القبائل حتى يتفرغوا لهذه المشاكل.. ولم يعر الموالى اهتمامًا شديدًا، رغم أن الإسلام لا يفرق بين المسلم والمسلم بسبب العِرْق أو الجنس ولكن مقياس التفاضل هو التقوى.

كما ملَّ الناس طغيان الولاة الذين كانوا يمسكون بزمام الحكم فى الولايات المختلفة.

وإذا كان الإسلام لا يأخذ البرئ بجريرة المذنب، فإن حكام معاوية كانوا يبطشون بالناس حتى يخشاهم الناس وذلك يتضح

من خطبة زياد فى البصرة الذى أعلن فيها أنه سيأخذ البرئ بذنب المسئ. . وأنه لا يرحم القريب انتقامًا من البعيد!!

وقال فيها فيما قال:

«إنى لأقسم بالله لأخذن الولى بالمولى، والمقيم بالطاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول:

انج سعيد فقد هلك سعد!!».

وقال فيما قال فى خطبته تلك:

«إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى».

وتبلغ سياسة الدهاء والمراوغة مداها فى عهد معاوية ومن بعده يزيد. حتى أن يزيد كان يشتكى لوالده أن هناك من يلجأ إليه خوفًا من العقوبة التى فرضها عليه فيعفو عنه معاوية.

ورد عليه معاوية. . يعلمه كيف يسوس الناس.

«إنه لا ينبغى أن تسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد. ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيننا».

وقبل وفاة معاوية نصح ابنه يزيد أن يحترس من بعض الطامعين فى الخلافة فقال:

«يابنى:

إنى قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر من قريش:

الحسين بن على

وعبد الله بن عمر

وعبد الله بن الزبير

وعبد الرحمن بن أبى بكر

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد شغلته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك.

وأما الحسين بن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه.

فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحمًا ماسة وحقًا عظيمًا.

وأما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم.. ليس همه إلا فى النساء واللهو.

وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير».

وكان الرجل مصيبًا فى آرائه.. لخبرته بالحياة وبالناس وبقدرته الفائقة على أن يسوس الناس.

* * *

كانت الصورة التى ارتسمت فى أذهان الناس أن الحكم الأموى لا يحقق الشريعة.. إنه يريد الدنيا.. ويريد الترف.. ويريد التمتع بمتع الحياة غير عابئ بالدين.. ولا بأحكام الدين.

ومن ذلك ما روى عن أبى ذر الغفارى -رضى الله عنه- الذى هاله ما رأى من بزخ معاوية، وحرصه على اقتناء القصور، والأكل فى صحاف من ذهب.. هالة هذا الترف، حتى أنه قال لمعاوية وهو يريه القصر الذى بناه.. (قصر الخضراء) «إن كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين.. وإن كنت بنيته من مالك فأنت من المسرفين»..

شعر الناس إذن بالفرق الشاسع بين حكم الخلفاء الراشدين، وحكم بنى أمية، فضاقت صدورهم بما يرون.. وكان من أمالهم أن تعود الخلافة إلى عصورها الذهبية عدلاً وتقى وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولكن أنىّ يكون ذلك.

والعصر غير العصر.

والحياة غير الحياة..

والسياسة لعبت دورها ليكون الحكم فى يد إنسان لا يُسئل عن تصرفاته وسلوكياته.. حتى لو أخذ الناس بالقهر والجبروت.. حتى لو حكموا بقوة السيف والسلطان.. بلا قانون ولا وازع من ضمير.. إلا المصلحة.. والحرص على السلطة والجاة والملك.. وتقريب من يشاء إليه، وإبعاد من يشاء.. وتحكيم الهوى.. وكان مثل هذا الحال لا يرضى رجلاً كالإمام الحسين.

ولا يرضى رجلاً كعبد الله بن الزبير.

ولا يرضى الصالحين من أمثال ابن عمر، وابن أبى بكر.

والسؤال لماذا اندفع الحسين إلى المعركة دون غيره؟

كانت كل الأمور مهيأة لأن يتحمل هو هذا العبء التاريخى.. فهو ابن الإمام على وأحق الناس بالخلافة كما يعتقد حتى يسوس الناس بمقتضى الكتاب والسنة.

وكان ابن الزبير يعرف أن دوره ليس مواتيًا فى هذه الفترة طوال حياة الإمام الحسين.. فهو الأكثر جماهيرية.. والأكثر

قربًا من الناس بحكم أنه ابن الإمام على، وحفيد الحسين، وابن بنت رسول الله فاطمة الزهراء.

ثم أن هناك عاملاً آخر زاد فى الإلحاح على أن يقوم الحسين بثورته على يزيد بن معاوية، وهو كما تنبأ معاوية.. أن أهل العراق لن يتركوه.. وأنهم سوف يستدعونه.. وبالفعل أرسل إليه رسائل كثيرة بأن يذهب إليهم فى العراق، وأنهم سوف ينصرونه، ويقفون إلى جانبه.

كان الحسين يريد الخروج إلى العراق.. ويضع نهاية لظلم بنى أمية الذين حولوا الخلافة إلى ملك عضوض.. يتوارثها أب عن جد.. لقد حولوا الخلافة إلى كسروية كما كانت عند الفرس، أو قيصرية كما كانت عند الروم.!

ولكن هل سيقف معه أهل العراق كما أرسلوا إليه فى رسائلهم، أو فى الوفود التى ذهبت إليه ليعود معهم إلى الكوفة يبايعونه، ويقفون بجانبه، حتى يؤول إليه الأمر فيحكم بما جاء فى الكتاب والسنة.. أم أنهم سيخذلونه كما فعلوا مع والده الإمام؟!!!

* * *